نسق السُّلطة السياسية في شعر قبيلة تميم بين الجاهلية والإسلام "دراسة في النقد الثقافي"

منى أحمد عبد الحفيظ*
maa56@fayoum.edu.eg

ملخص

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على نسق السُّلطة السياسية في شعر قبيلة تميم في العصرين الجاهلي والإسلامي باستخدام النقد الثقافي الذي يبحث في مضمرات النص المخبوءة وراء لغته الجمالية ، وهو من أهم الحركات النقدية التي رافقت ما بعد الحداثة ، ومبحث السُلطة من أهم مباحثه التي بها يكشف مناطق الهيمنة في النصوص ، وفضح القبيح منها الذي يهدف إلى إلغاء المتلقين وتنميط فكرهم وإخضاعهم لسيادة المُتسلط ، وقد خلص البحث إلى أن القبيلة كانت مركز السُّلطة السياسية في العصر الجاهلي . وفي الإسلامي تضاءلت سُلطة القبيلة وأصبحت الهيمنة للإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم ، وفي العصر الأموي رجعت سُلطة القبيلة مرة ثانية بسبب ظهور الأحزاب السياسية ، كما انتشرت سُلطة الحكام الفردية.

الكلمات المفتاحية : شعر قبيلة تميم الجاهلي والإسلامي ، النقد الثقافي ، نسق السُلطة السياسية .

* مدرس مساعد بقسم اللغة العربية- كلية الآداب جامعة الفيوم

المقدمة

رُغم كثرة ما قدمه الباحثون في الشعر الجاهلي من دراسات متنوعة بمناهجهم المتعددة كالسيميائية والأسلوبية والمنهج النفسي ...إلخ ، وخاصة المناهج التي تبحر في مضمونه وتستكنه لغته الرمزية ، وتبحث في مضمراته المخفية وراء لغته الجمالية ؛ فإنه مازال متسعًا لدراسات أخرى تخوض غماره ، وتغوص أعماقه ؛ لتستخرج دره ، وتبين عن عمق دلالاته وتأويلاته.

هذه الدراسة من الدراسات التي تتفحص لغة الماوراء في الشعر الجاهلي ؛ إذ تأتي قراءتنا هنا متتبعة ثقافة الشاعر الجاهلي عبر شعره الذي جاء محملًا بتاريخه ومعتقده الديني ، وممارساته في مواجهة حياته بجميع قضاياها الثقافية السياسية والاجتماعية ....إلخ ، وسبيلنا في هذه القراءة النقد الثقافي لقراءة الأنساق الثقافية[١] في البنية العميقة للشعر؛ تلك التي كانت مختزلة في كوامن الشاعر وعبر عنها من خلال شعره تعبيرًا غير مصرح به ؛ لذا تحتاج إلى تأويل عميق يسهم في فهم ثقافة المجتمع الجاهلي ، وذلك من خلال شعر قبيلة تميم في العصرين الجاهلي والإسلامي.

وقبيلة تميم من كبريات وأشهر القبائل العربية في الجاهلية ، وأهمها في تاريخنا العربي القديم ، وهي " قبيلة مضرية عدنانية، كانت من أوفر القبائل عدداً، وأوسعها بلداً، وأكثرها عظيماً، وأمنعها حريماً "[٢] ، وقد حظيت وحظي شعراؤها بمكانة كبيرة في العصر الجاهلي ، كثر فيها السادة والفرسان والشعراء والحكماء ؛ فقد تعدت سيادتهم خارج حدود القبيلة ؛ فقد كان أحد حكمائها أكثم بن صيفي[٣] حكيم العرب في الجاهلية.

---

[١] "النَّسق" من أهم المصطلحات في النقد الثقافي و هو: "مجموعة الآليات المعرفية والفكرية لفئة اجتماعية معينة، أو لايديولوجيا مترابطة ومتمايزة ومتفاعلة تخص المعارف والفنون، والأخلاق والمعتقدات واللغة وغيرها من أنساق المجتمع ، وتتصف بالمرونة في الانتقال بين الأفراد والجماعات والأجيال ، كما أنه سريع التأثر في الخطابات الاجتماعية" نظرية النقد الثقافي ما لها وما عليها، د. ملحة السحيمي، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة طيبة، المدينة المنورة، ص١٥.

[٢] عبد الحميد محمود المعيني ، شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، منشورات نادي القصيم الأدبي ، ١٩٨٢ ، ص١١.

[٣] ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق د/ عبد السلام هارون، طبع دار المعارف، مصر، ١٩٩٢، ص٢١٠.

وثمة أسباب تجعل هذه القبيلة أحرى بالدراسة من غيرها ؛ وهي أسباب تثري الدراسة الثقافية ؛ فبالإضافة إلى اشتهارها وبراعتها بالشعر، منها شعراء عاصروا الجاهلية ، ومخضرمون عاصروا الجاهلية والإسلام ، وآخرون عاصروا الإسلام ؛ فيكون شعر هؤلاء الشعراء سبيلًا لرصد التحول الثقافي للقبيلة من العصر الجاهلي إلى الإسلامي.

وتميم قبيلة محاربة في الجاهلية والإسلام ذات قوة وبأس شديدين تأنف الخضوع لغيرها ، كانت لها مكانتها وسيطرتها بين القبائل ؛ ففي الجاهلية خاضت تميم أيامًا منها يوم الصفقة ويوم السلان ، ويوم الرحرحان ، وفي الإسلام شاركت في عديد من الحروب للذود عن الإسلام ونشر دعوة الحق ، وتعاليم الدين الحنيف.

ودخلت الإسلام لأن " كانت رغبة الرسول–صلى الله عليه وسلم– شديدة في ضم تميم إلى جانبه كقبيلة قوية ذات بأس شديد ، هو بأمس الحاجة إليها في وقت اشتدت فيه الحاجة للرجال الأقوياء الأشداء، ولما كان يدركه النبي –صلى الله عليه وسلم– من أهمية في قوتها ورجالها ، لكن تعنتها وكبرياءها واعتزازها بنفسها وبعصبيتها القبلية جعلها تقف موقفاً سلبياً من الدعوة منذ البداية ، غير أن الرسول ببراعته المعهودة استطاع أن يسلط عليها غطفان بقيادة عيينة بن حصن وهو أعرابي موغل في البداوة مثلهم ، فلم يكد يتسلط عليهم ويغزوهم حتى سارعوا إلى الدخول في الإسلام ، فدخلوا فيه لكي يخملوا أمر غطفان ، وبدأ تاريخهم في الإسلام بعد ذلك ، وكان لهم فيه دور كبير"[٤].

و" في حركة الفتوح الإسلامية ، ساهمت هذه القبيلة برجالها الأشداء وظلَّ قوادها يعملون على تدعيم الحكم الإسلامي في البلاد المفتوحة من أمثال القعقاع بن عمرو التميمي[٥]؛ فلا أحد ينكر " دور تميم في حركة الفتوح الإسلامية ومساهمتها فيها مساهمة فعالة ، سواء في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب ، في شبه جزيرة

[٤] عبد الجبار العبيدي ، قبيلة تميم العربية بين الجاهلية والإسلام ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السابعة ، ١٩٨٦ ، ص٦٥.

[٥] المرجع السابق ، ص٦٥.
ص٦٦.

العرب وخارجها ، إلا أن دور القبيلة لم يظهر ككل ، بل على هيئة أفراد ، قواداً وجنوداً" [٦]؛ وهذا يرجع إلى ضعف العصبية القبيلة في الإسلام . واشتركت تميم في الفتوحات الإسلامية في فتوح العراق ، أفراداً وجماعات مع جنود المسلمين الذين حاربوا على هذه الجبهة الهامة ، فقد أمد الخليفة أبو بكر الصديق خالدا بالقعقاع بن عمرو التميمي مع جمع من مضر في مسيرة إلى العراق وقد وصف الخليفة هذا الفارس التميمي بأنه لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع[٧].

المنهج (النقد الثقافي)

من أهم الممارسات النقدية في تحليل النصوص الأدبية وذلك من خلال بحثه في مضمرات النص الثقافية المخفية وراءعباءته الجمالية ؛ إذ يرى غرينبلات[٨] أن النص الثقافي يوظف الجماليات الاستعارية والمجازية بوصفها تشكيلات أو بني زائفة تضمر وراءها شيفرات لامتناهية من الدلالات والمعاني[٩]؛ ذلك معناه أننا أمام أدبية الثقافة أو نصنصة الثقافة ؛ فالنص الشعري بمكوناته الجمالية السطحية يخفي في بنيته العميقة قضايا ثقافية تتجه نحو موضوعات المجتمع الجاهلي ، تحتاج إلى تأويل عميق يسهم في فهم ثقافته.

جاء النقد الثقافي رد فعل لمناهج النقد الأدبي التي تُعنى فقط بالقضية الشكلية للنص أو الجمالية، إنما هذا النقد يبحث في لغة الماوراء، يغوص في الأعماق باحثًا عن الدرر الثمينة ، فليست أهمية القصيدة الجاهلية في تقاليدها الفنية أو لغتها أو إبداعها البلاغي، بل بما تحويه من قضايا ثقافية شغلت المجتمع الجاهلي بقضاياه السياسية والاجتماعية...الخ ؛ فالهدف هنا تقديم تحليل جديد للشعر الجاهلي ، ونظرة

---

[٦] نفسه ، ص٥٥.

[٧] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ج٣ ، ص٣٤٦.

[٨] غرينبلات ناقد ثقافي ولد ١٩٤٣، أستاذ النقد الإنجليزي في جامعة كاليفورنيا، يمثل علامة فارقة في تاريخ الدراسات الثقافية من خلال كتاباته النقدية الجادة في هذا المجال. " النقد النسقي: تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي ، يوسف عليمات، نشر الدار الأهلية، الأردن، عمان، ط١، ٢٠١٥، ص١٢.

[٩] جون برانيغان ، السلطة وتمثيلها: قراءة تاريخية في قصة" أثلجت" لريتشارد جيفري، ترجمة: يوسف عليمات ، نوافذ ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، عدد٢٨، نوفمبر ٢٠٠٧، ص١١٠.

جديدة على غير تكرار للسابقين ، بل لابد من التجديد في التأويل ؛ ولذا فإن هذا الاتجاه محفوف بالمخاطر يحتاج إلي الخبرة الواسعة والدراية الكافية وتحري الحقيقة والدقة في مجال كثرت فيه الدراسات وتشعبت أيَّما تشعب.

ويتفاعل النقد الثقافي مع مناهج متعددة ؛ "فمن الماركسية أخذ مفهومي الهيمنة والسلطة ، ويعرف فوكو[١٠] السلطة بالقدرة على تحقيق ماهو مرغوب فيه سواء وجدت مقاومة أو لم توجد ، وتتضح ملامح السلطة في الأدوات والأساليب والإجراءات المؤثرة في أفعال الآخرين" ، وتعرف الهيمنة بالتسلط أو الرقابة الصارمة التي يفرضها فرض أو شعب أو مؤسسة أو غير ذلك لتحقيق مصلحة للمتسلط أو الرقيب ؛ فالهدف واحد لكل من الهيمنة والسلطة وهو تحقيق المصالح حتى لو وجدت معارضة ، ويحاول النقد الثقافي فحص الخطابات وإظهار مواطن الهيمنة الثقافية ، القابعة بين ثناياها، وفضح المتواري منها الذي يسعى إلى تنميط فكر المتلقين المهيمن عليهم بما يخدم مصالح الفئة المهيمنة ، أيا كانت هذه الفئة المهيمنة سواء كانت قوة سياسية أم دينية أم اجتماعية أم اقتصادية[١١]".

خطة البحث:

ينقسم البحث إلى مقدمة ومبحث وخاتمة بالنتائج ، وثبت للمصادر والمراجع. والمبحث : فيه عرضت لأنساق السُّلطة السياسية في شعر قبيلة تميم الجاهلي والإسلامي ، وتضمن نوعين من السُّلطة السياسية : سلطة القبيلة وسلطة الحاكم .

مادة البحث : يتناول البحث شعر قبيلة تميم الجاهلي والإسلامي الذي ورد في المصادر الآتية:

١- ديوان شعر قبيلة بني تميم في العصر الجاهلي ، جمع وتحقيق الدكتور: عبد الحميد محمود المعيني ، نشر نادي القصيم الأدبي ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م

[١٠] فيلسوف فرنسي ، وناقد أدبي، له دراسات في مجال السلطة والعلاقة بينها وبين المعرفة.

[١١] ينظر نزار جبريل السعودي ، تفاعل النقد الثقافي مع المناهج النقدية والمعارف المتعددة ، ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ١٤، عدد٢ ، ٢٠١٧ ص- ٢١٣-٢١٥.

٢- عبد القادر فياض حرفوش ، شعراء تميم في الجاهلية والإسلام ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، نشر دار البشائر ، دمشق ، ج٢ ، ج٣.

- ديوان علقمة الفحل ، جمع وشرح السيد أحمد صقر، نشر مطبعة المحمودية بالقاهرة ، ط١، ١٩٣٥م.
- ديوان العجاج ، تحقيق د. عزة حسين ، نشر دار الشرق العربي ، ١٩٩٥.
- ديوان مسكين الدارميّ ، جمع وتحقيق عبد الله الجبوري ، وخليل إبراهيم العطية ، مطبعة دار البصري ، بغداد ، ط١، ١٩٧٠م.
- شعر الفتوح الإسلامية ، النعمان عبد المتعال القاضي ، د.ط ، د.ت .
- شعر نافع بن الأسود ضمن كتاب نوري حمودي القيسي ، شعراء إسلاميون ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م.

الدراسات السابقة :

وجدت مجموعة دراسات منها ما كان في النقد الثقافي عامة في قبيلة تميم أو أحد شعرائها : تناولت الأولى شعر عدي بن زيد العبادي- أحد شعراء تميم -في ضوء النقد الثقافي بعنوان" الأنساق الثقافية في شعر عدي بن زيد العبادي" للباحث محمود علي أحمد، ماجستير ٢٠١٩، جامعة بغداد، بإشراف د.عدنان جاسم الجميلي، والثانية بعنوان " النص الهجائي وخطاب الأنساق في شعر شعراء الطبقة الثانية عند ابن سلام الجمحي، ومن هذه الطبقة الشاعر أوس بن حجر-أحد شعراء تميم- وذلك في بحث مكون من ثلاثين صفحة لجنان محمد عبد الجليل وسعد سامي محمد، في مجلة المنتدى الوطني لأبحاث الفكر والثقافة، العراق، عدد٢٨، ٢٠١٦؛ ولذا في هذه الدراسة سوف يتم استثناء ما تم بحثه ، ودراسة بعنوان " الأنساق الثقافية وصراع المرجعيات في نقائض المثلث الأموي : جرير ، الفرزدق ، الأخطل ، لسيد فضل الله وحسين كياني وموسى عربي وعلي خطيبي ، مجلة آداب الكوفة ، العدد ٥٦ ، الجزء٣ ، ٢٠٢٣ ؛ لذا تم استبعاد جرير والفرزدق من الدراسة. وأخرى دراسات تختص ببعض مباحث النقد الثقافي : دراسة بعنوان " تهميش الآخر في شعر الأحزاب السياسية في العصر الأموي ، بحث لحمدي عقيلة عبد المنعم ، بمجلة علوم اللغة والأدب ، مجلد

١ ، العدد١ ، يناير ٢٠٢٢ ، وليس بها شاعر من شعرائنا ، وبحث بعنوان تجليات نسق الفحولة المضمر في الشعر السياسي الأموي "شعر السُّلطة نموذجًا" ، دراسة لحمدي عقيلة عبد المنعم ، بمجلة علوم اللغة والأدب ، المجلد ١ ، العدد١ ، يناير ٢٠٢٢ ، وليس بها شاعر من شعرائنا .

نسق السُّلطة

نسق السلطة من أهم الأنساق التي يبحثها النقد الثقافي في الشعر، ويكشف تخفيها في النصوص ؛ وتحليل كافة الأشكال السلطوية التي تؤدي إلى بروز فئة وتهميش أخرى على كافة مستويات التمايز: سياسية ، اجتماعية ، ثقافية ، جنسية والتي يمكن التعبير عنها بطريقة أخرى: الحاكم والمحكوم ، الأغنياء والفقراء ، المركز والهامش ، الأنا والآخر ، الذكر والأنثى ...إلخ ؛ فإن" التحليل الثقافي، إذن، يركز بشكل واضح على التمايز الثقافي بين الطبقات الاجتماعية، وهذا يعني بصورة مباشرة أنه تحليل لطرائق إنتاج الخطاب وآليات تشكله من قبل السلطة التي تسيّر كل التجارب الإنسانية في الوقت الذي تتوق فيه هذه السلطة إلى فكرة الهيمنة على حد تعبير فوكو"[١٢]؛ وذلك لأن " قد تأثر المنهج الثقافي بمنهجية دريدا التفكيكية القائمة على التقويض والتشتيت والتشريح، ولكن ليس من أجل إبراز التضاد والمتناقض، وتبيان المختلف إضاءة وهدما وتأجيلا، بل من أجل استخراج الأنساق الثقافية عبر النصوص والخطابات سواء أكانت تلك الأنساق مهيمنة أو مهمشة، وموضعتها في سياقها المرجعي الخارجي، متأثرة في ذلك بالماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والمادية الثقافية، والنقد الكولونيالي(الاستعماري)، والنقد النسوي الذي يدافع ثقافيا عن كينونة التأنيث في مواجهة سلطة التذكير"١٣. وقد عدَّ الغذامي السُّلطة من القُبحيات النَّسقية إذ يقول إن :" كبار مبدعينا كأبي تمام والمتنبي ونزار قباني وأدونيس، حيث نكتشف ماتنطوي عليه نصوصهم من أنساق مضمرة تنبئ عن منظومة طبقية/ فحولية/ رجعية/

[١٢] يوسف عليمات ، جماليات التحليل الثقافي في الشعر الجاهلي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ط١ ، ص٣٠.

[١٣] جميل حمداوي ، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان ، مقال بموقع ديوان العرب ، ٧ يناير ٢٠١٢ ، www.diwanalarab.com.

استبدادية، وكلها أنساق مضمرة لم تك في وعي أي منهم، ولا في وعي أي منا، ونحن وهم ضحايا ونتائج لهذه الأنساق . وظلت هذه الأنساق اللإنسانية واللاحضارية تتسرب في ضميرنا الثقافي، دون كشف أو ملاحظة، حتى لنجد تماثلاً مخيفاً بين الفحل الشعري والطاغية السياسي والاجتماعي، مما هو لب النسق وبؤرته غير الملحوظة . ولقد آن الأوان لممارستنا النقدية بأن تتحرك باتجاه نقد الخطاب الإبداعي، من بوابة النقد الثقافي لتكشف ما يحمله الإبداع، لا من جماليات نسلم بها، ولكن من قبحيات نسقية لم نكن ننتبه لها[١٤].

والسلطة ملازمة للوجود الإنساني عبر تاريخه ولا يمكن أن نتصور وجوده بعيدًا عن سلطة يحتكم إليها في أمور حياته فهي إلى جانب كونها ظاهرة لاتخرج عن إطار الزمن هي أيضا ظاهرة ملازمة للمجتمع ومتغيرة بتغيره، وهي ليست فقط ملازمة للتكتل الاجتماعي فهي تخلقه وتنظمه حسب مقتضياتها وطبيعتها[١٥]؛ وهي السلطة الشرعية المطلوبة في بناء المجتمعات والارتقاء بها عن طريق المشاركة والعلاقات المتبادلة بين الأفراد والكيانات ، أما السلطة التي يرفضها النقد الثقافي هي تلك السلطة التي تقصي الآخر وتهمشه ولا تعترف به.

وطبقًا لفوكو فإن" السلطة حاضرة في كل مكان، ولكن ليس لأنها تتمتع بقدرة جبارة على ضم كل شيء تحت وحدتها التي لا تقهر، وإنما لأنها تتولد، كل لحظة، عند كل نقطة، أو بالأولى، في علاقة نقطة بأخرى. إذا كانت السلطة حالة في كل مكان، فليس لأنها تشمل كل شيء وإنما لأنها تأتي من كل صوب[١٦]؛ فإن " كانت السلطة عند مفكري مدراسة فرانكفورت، وبعض نقاد مركز برمنغهام للدراسات الثقافية، ونقاد المادية الثقافية تأثرًا بماركسية أعضائها، ملك البرجوازية التي تمتلك وسائل

[١٤] عبد الله محمد الغذامي ، عبد النبي أصطيف ، نقد ثقافي أم نقد أدبي ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٤ ، ص٤١-٤٢.

[١٥] خلوات حليمة ، مفهوم السلطة السياسية في المجتمعات القديمة والحديثة " دراسة تحليلية" ، بمجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية ، مجلد ٨ ، العدد ١، ٢٠١٧ ، ص ٣٧١.

[١٦] ميشيل فوكو ، جنيالوجيا المعرفة ، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط٢ ، ٢٠٠٨ ، ص١٠٦.

الإنتاج، ووسائط الإعلام والتواصل، والقوة؛ فإن فوكو جعل السلطة ظاهرة غير مرتبطة بالدولة والطبقات الحاكمة فحسب، بل يمكن أن يمارسها المجتمع بأشكال مختلفة"[١٧]. والسلطة تعرف بأنها السيطرة بالرأي والقوة والحكم والجزاء والعقاب ؛ ولذا قد نجدها في قمة الدولة في الحكم السياسي ، ونجدها في المستوى الأقل في الوزراء والقواد والحاشية ، وقد نجدها في رجال الدين لنطلق عليهم أحيانا السلطة الدينية ، ونجدها في البيت يتولاها الأب أو الأم وفي كل فرد ممن ينطبق عليهم السيطرة والرأي ، وطبقًا لهذا المعنى يمكن إلصاق السلطة بالصحافة ، كما يمكن إلصاقها بالإعلام وبالمعلمين بل بالشعراء أنفسهم ، ومنها أشتق لفظ السلطان فهو الحاكم المسيطر أو القوي المتحكم[١٨].

لكن ما علاقة السلطة بالخطاب أو الشعر ؛ " الخطاب عنصر في سلسلة تعمل ضمن آلية السلطة" [١٩] و" الخطاب، بحسب ما نظَّر له فوكو، منظومة من المقولات يمكن أن يُدرك العالم داخل حدودها. وهو منظومة تمكّن الجماعات المهيمنة في المجتمع من تشكيل مجال الحقيقة من خلال فرض معارف وحقول معرفية وقيم معينة على الجماعات الخاضعة لسيادتها . وبوصفه تكوينًا اجتماعيا، يؤدي الخطاب وظيفة تشكيل الواقع، ليس للأشياء التي يبدو أنه يمثلها فحسب، بل أيضًا للموضوعات التي تشكل المجتمع، والذي يعتمد عليه الخطاب"[٢٠]. ومثالًا على ذك الخطاب الكولونيالي ؛ إذ " هو مركّب العلامات والرموز والممارسات الذي ينظم الوجود الاجتماعي والتوالد الاجتماعي داخل العلاقات الكولونيالية"[٢١]، وقد لا تكون السلطة ظاهرة في الخطاب ؛ حيث " يتخذ التعبير عن علاقات السلطة صوراً غير بارزة في إطار استراتيجية الحفاظ

[١٧] عبد الرازق المصباحي ، النقد الثقافي قراءة في المرجعيات النظرية المؤسسة ، المركز العربي للأبحاث ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٢٢ ، ص٨٦.

[١٨] ا نظر أحمد سويلم ، الشعراء والسلطة ، دار الشروق ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٣ ، ص من ٢٠-٢٣.

[١٩] الزواوي بغورة ، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص٢٤٨.

[٢٠] بيل أشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية ، ترجمة أحمد الروبي وآخرون ، نشر المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠ ، ص١٠١.

[٢١] المرجع السابق ص١٠١.

على السلطة وممارستها"[٢٢]. وليس جميع الشعراء يصنعون خطابًا مخططًا لأجل السلطة وإضفاء طابع الفرادة والتميز عليها ، ويكون الشعر خطابًا يصنعه المثقف لأجل سلطة القبيلة أو السلطة السياسية أو أية سلطة ؛ فهو آداة من أدوات السلطة في استمرارها ودعمها. أو يكون الشعر لمقاومتها وهدمها.

إن " الخطاب يمثل جزءًا من الممارسة الاجتماعية ويسهم في إعادة إنتاج الهياكل الاجتماعية. وهكذا فإذا فرضت القيود بصورة منتظمة على مضمون الخطاب، وعلى العلاقات الاجتماعية التي يجسدها وعلى الهويات الاجتماعية المشاركة في هذه العلاقات، فلنا أن نتوقع أن هذه القيود سوف يترتب عليها آثار طويلة الأجل في المعارف والمعتقدات، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي الهويات الاجتماعية لمؤسسة ما أو لمجتمع ما"[٢٣].

وقد كان في العصر الجاهلي حسب ما يراه الغذامي " الشعر هو المؤسسة الثقافية العربية ، والقيم الشعرية هي القيم الثقافية ، وقيم السلوك الرسمي الاجتماعي ، وتمت شعرنة الذات العربية ، وشعرنة الخطاب العربي"[٢٤] . ولذا يرى أن هذا الشعر والذي هو ديوان العرب وعلمهم الذي لم يكن لهم علم سواه لابد أن تجري عليه عملية نقد منهجي يُشرحه ويكشف عيوبه لنسلم منها ؛ ونتجنب عيوبه النسقية في تكوين ذواتنا ؛ لأننا سنستلهم منه نماذجنا في الفعل والتصور، وسنتمثل سيئاته مثلما نتمثل حسانته ، وعدَّ من عيوبه شخصية الشحاذ" الشاعر المداح" ، وشخصية الطاغية ، وشخصية الهجاء[٢٥]. فكما حمل هذا الشعر إلينا قيم الشجاعة والكرم والوفاء والصدق والمروءة وغير ذلك من قيم نبيلة ، حمل أيضًا قيم البغي والظلم والافتخار بالنسب وغيره من قيم سلبية لا نود تمثلها.

---

[٢٢] نورمان فيركلف ، اللغة والسلطة ، ترجمة د . محمد عناني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٦، ص١٠٤.

[٢٣] نورمان فيركلف ، اللغة والسلطة ، ص١٠٧.

[٢٤] انظر عبد الله الغذَّامي ، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥ ، ص٨٩.

[٢٥] عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ص٩٨-٩٩.

ولم يكن العرب في العصر الجاهلي تحت سلطة واحدة تجمعهم ، كالدول التي كانت تحيط بهم الفرس والروم والحبشة ؛ ربما يكون السبب في ذلك هو انشغالهم الدائم بالحروب والغارات التي تدفعهم إليها العصبية القبيلة أو الأخذ بالثأر أو بسبب متطلبات الحياة من المأكل والمشرب والتي من أجلها يبذلون كل معاني البطولة والنجدة والشجاعة والقوة ؛ " فرغم وجود دولتي المناذرة والغساسنة على أطراف الجزيرة العربية، وانبساط نفوذهما على أجزاء كثيرة منها، إلا أن أيا من تلك الدولتين لم تتمكن من جمع القبائل العربية تحت سلطتها، فضلا عن أن دولتي الغساسنة والمناذرة لم تكونا عربيتين، فكما هو معروف، فقد كان المناذرة يتبعون دولة الفرس ويدينون لها بالطاعة والولاء، مثلما كان الغساسنة يتبعون دولة الروم ويفعلون ما يفعله جيرانهم المناذرة، مما يعني عدم وجود دولة عربية تجمع القبائل العربية كلها، .... وهكذا فالعرب، وتبعا للنظام القبلي السائد، لم يكونوا يدينون لدولة بسلطان، وإنما كان الولاء الأول والأخير للقبيلة. وقد يكون السبب في ذلك عائداً إلى طبيعة الشخصية العربية التي يبدو أنها كانت تأنف من الخضوع لسلطة خارجية، وتقاوم–بطبيعتها– مثل هذه السلطة، فضلا عن العقلية العربية المتهمة بالنزق وضيق الصدروسرعة الغضب"[٢٦].

كانت القبيلة في العصر الجاهلي بمثابة الدولة ؛ ذلك أنه كان " للقبيلة رئيس أو شيخ يتزعمها ، ويكون عادة من ذوي السن ، والخبرة ، والحكمة والحلم ، وسداد الرأي وبُعد النظر ، والثروة ، والشجاعة ، الكرم ، وطلاقة اللسان بحيث يحوز رضا القبيلة وإعجابها ، وينال احترامها ، فالقبيلة ترتضي لها رئيسًا أو شيخًا تتوافر فيه صفات الرجولة ، والنجدة ، والكرم ، وعراقة الأصل ، وصفاء النسب ، وهذه الخصال هي التي تؤيده للقيادة والزعامة[٢٧].

كان لكل قبيلة سياستها المستقلة ، وهيمنتها التي تتمثل بالعصبية القبلية ؛ ذلك أن أفرادها تلزمهم جيمعًا الدفاع عنها ونصرتها وحمايتها ؛ حتى وإن تطلب ذلك إنفاق كل

[٢٦] صالح طه ، أدب حكام العرب في العصر الجاهلي ، رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ، كلية الآداب ، ٢٠٠٤ ، ص٥.

[٢٧] يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٦ ، ص٤٤.

مايملكون ، وتضحيتهم بأنفسهم ، فوجودهم هو وجود القبيلة ، وعزتهم تكمن في نصرتها ظالمة أو مظلومة.

والشاعر فرد من أفراد القبيلة الذين عليهم جميعًا أن يخضعوا لرأيها ولا يخرجون عليه ، بل الشاعر أكثر مهمة من ذلك ؛ فالشاعر يسخّر شعره لخدمة القبيلة يمدحها فيرفع قدرها بين القبائل أو يحمس الجنود في الحرب بشعره ، كانت له مزية عن غيره من أفراد القبيلة فهو المثقف والمسؤول الإعلامي عنها ؛ ولذا فقد ذكر بن رشيق القيرواني أنَّه" كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم"[٢٨].

لقد ألزمت منزلة الشاعر هذه في قبيلته ألا يتحدث إلا عنها ، ولا يقل دوره بكلمته عن دور الجندي المدافع عنها في الحرب بسلاحه ، بل أحيانًا يكون الشاعر فارسًا ، ويصبح لديه وسيلتان في الدفاع عن قبيلته هما سلاحه وشعره ، وعندئذ يكون شاعرًا وفارسًا في نفس الوقت.

وقد أثرت القبيلة على ما يبدعه الشاعر؛ يقول الشعر لإعلاء شأن القبيلة والتحدث عن سلطتها ؛ يرفع قدرها ويحط قدر القبائل الأخرى ؛ فالشاعر يسجل في شعره مآثر قبيلته ، يشيد بمكانتها بين القبائل ، يفخر بحسبها ، وتمسكها بالمثل العليا المقدسة في المجتمع الجاهلي ، ولذا يرى د.يوسف خليف أن العقد الاجتماعي بين الشاعر وقبيلته تحول إلى عقد فني ؛ فرض عليه ألا يتحدث عن نفسه ، وإنما يتحدث عن قبيلته ، يجعل من لسانه لسانًا لقبيلته ومن شعره صحيفة لها ، ويصبح ضمير الجماعة "نحن" آداة التعبير بدلًا من ضمير الفرد "أنا" فحين يفتخر يفتخر بقبيلته ، بنسبها ، وكرمها ومكانتها وشجاعتها ، وإن فتخر بنفسه يعود على قبيلته كل ما يذكره عن نفسه لأنه فرد منها ؛ فالغاية قبيلية وإن كانت الوسيلة فردية[٢٩] ؛ ولذا يأتي شعر

[٢٨] ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٤، ١\٤٩.

[٢٩] يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، دارغريب ، القاهرة ، ص ١٧٤، ١٧٥.

السلطة السياسية في شعر قبيلة تميم في المقدمة ، وهذا من سلطة القبيلة على الشاعر ، والتي ترجع إلى التمايز الطبقي السياسي بين القبيلة والشاعر الذي يفعل ذلك موالاة للقبيلة ، ولم يكن كل الشعراء موالين للقبيلة ؛ بل كان هناك شعراء عاصين متمردين ولذا كانت عقوبتهم الإقصاء والتهميش كالشعراء الصعاليك.

وكانت سلطة قبيلة تميم ؛ ذلك أنها من كبريات وأشهر القبائل العربية في الجاهلية ، وأهمها في تاريخنا العربي القديم ، حظيت وحظي شعراؤها بمكانة كبيرة في العصر الجاهلي ، كثر فيها السادة والفرسان والشعراء والحكماء ؛ فقد تعدت سيادتهم خارج حدود القبيلة ؛ فقد كان أحد حكمائها أكثم بن صيفي[٣٠] حكيم العرب في الجاهلية.

ولما كان لتميم من شأن عظيم كانت لها رياسة سوق عكاظ ؛ ولم لا ومن يتصدى للحكم على الشعراء وهم الذين برعوا في الشعر منذ امرئ القيس، ولما نضج الشعر وتطورت القصيدة العربية نهض شعراؤهم الفحول أمثال الشاعر أوس بن حجر شاعر تميم الكبير، هذا بالإضافة إلى فصاحتهم التي شهد بها اللغويون ؛ "ولذلك لم يكن غيرها أقوى قياسًا منها"[٣١].

كانت قبيلة تميم قبيلة محاربة ذات بأس شديد ، فيها غلظة من جانب ، ومن جانب آخر فيها الحكمة والشرف والجاه فلا عجب أن تكون فيها العزة المنيعة ، وأن تسود في حروبها ومنازلها ، ولم لا تسود وفيها من أسباب السيادة فرسان أشداء ، ورجال عظماء ، وشعراء فحول ، وعدد الحصى[٣٢] ؛ ولذا قال عنها ابن حزم أنها من أكبر قواعد العرب[٣٣].

---

[٣٠] ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب، تحقيق د/ عبد السلام هارون، طبع دار المعارف، مصر، ١٩٩٢، ص٢١٠.

[٣١] صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، نشر دار العلم للملايين ، ط٣ ، ٢٠٠٩ ، ص٧٢-٧٣.

[٣٢] عبد الحميد محمود المعيني ، التميميون أخبارهم وأشعارهم في العصر الجاهلي ، نشر الوكالة العربية ، الأردن ، ١٩٨٤ص٣٥.

[٣٣] ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٢٠٧.

كان لتميم ثلاثة أبناء عمرو والحارث وزيد مناه ، تفرع عنهم فروع كثيرة ، واشتهر كثير منهم بالشعر والفصاحة والفروسية ، فمنهم الشاعر أوس بن غلفاء الهجيمي ، والشاعر عدي بن زيد العِبَادي ، وعلقمة الفحل، وسلامة بن جندل ، مالك ومتمم ابنا نويرة ، ولقيط ومعبد ابنا زرارة وإليهم ينتمي الشاعران الكبيران جرير والفرذدق.

وقد أثبت البحث عن السلطة في شعر قبيلة تميم في العصر الجاهلي إلى استقراء أن سلطة القبيلة أو السلطة السياسية هي الأكثر وجودًا في شعرهم ، ويمكننا رصد السلطة السياسية كالآتي :

أولًا في العصر الجاهلي

يقول زهير بن عروة[٣٤]:

إذا الله لـــم يســـقِ إلَّا الكِـــرامَ فســـقَّى وجـــوه بنـــي حَنبـــلِ

مُلثِّـــاً أحـــمَّ دوانـــي السِّـــحاب هـــزيم الصلاصِـــل والأزمـــلِ

تُكركـــره خَضخَضـــاتِ الجنـــوبِ وتفرغـــــه هـــــزَّةُ الشـــــمألِ

كـــأنَّ الرَّبـــاب دويـــن الســـحابِ نعـــــام تعلـــــقَّ بالأرجـــــلِ

فـــنعم بنـــو العـــم والأقربـــون لـــدى حطمـــة الـــزمن المححـــلِ

ونعـــم المواســـون فـــي النائبـــا ت للجـــار والمعتفـــي المرمـــلِ

ونعـــم الحمـــاة الكفـــاةُ العظـــيم إذا غـــائط الأمـــرِ لـــم يحلـــلِ

ميـــامين صـــبر لـــدى المعضـــلاتِ علـــى موجـــع الحـــدث المعضـــلِ

مباذيـــل عفـــو جزيـــل العطـــاء إذا فضـــلة الـــزاد لـــم تُبـــذلِ

[٣٤] عبد الحميد محمود المعيني ، شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، ص٤٠١.

هــم ســبقوا يــوم جــري الكــرام ذوي الســبق فـــي الـــزمن الأولِ

وســاموا إلــى المجـد أهـل الفعـالِ فطـــــالوا بفعلهـــــم الأطـــــولِ

يمدح الشاعر زهير بن عروة في بني عمه ذوبانهم في المجد؛ هم المجد ، والمجد هم ؛ فهم من أشراف بني مازن ، يتمتعون بخصال العفو ، الوقوف مع ذوي القربى ، المواساة في النائبات ، حل المعضلات ، الكرم ، الشجاعة ، الشهامة ، وقوم يفعلون كل ذلك هم الوجود الذي عبروا إليه بفضائلهم الجمة ؛ هم سر الحياة بدونهم يضيع المجتمع.

إن الأبيات تكشف عن نسق مضمر يؤكد سعي الشاعر إلى إبراز سلطة قبيلته ؛ بقدرتها على تخطي كل الصعاب ؛ ففي عالم يقل فيه الزاد تكون جزيلة العطاء ؛ إنه أجمل تجليات الكرم وأعظمها.

إن القبيلة تملك أسباب الخير في الحياة بفعل المطر الذي سقى الله به وجوهها ؛ فالمطر مبعث الحياة وخصبها بعد الجفاف والجدب ، فهذه الصورة تعلن أن القبيلة مبعث الحياة ، وتملك سبب الوجود وهو الماء.

وفي هذا البناء الفني ثمة صور جزئية تعاضدت لتكوين صورة كلية عن القبيلة ، وقد استخدم الشاعر في هذه الصور تكرار المدح ب" نعم" ثلاث مرات : نعم بنو العم ، نعم المواسون ، نعم الحماة ؛ ومن البدهي أن لهذا التكرار بعد دلالي يتمحور في كون المدح بهذه الصيغة يحمل دلالة التفوق لقبيلته في كل صفة من الصفات التي مدحها بها ؛ ولذا سبقت في الزمن الأول ؛ فهم الأصل منذ القدم ، وأصحاب المجد العريق الذي طالوا به كل أطول.

ومن سلطة القبيلة يقول عمرو بن حوط :[٣٥]

قَسَـطنا يــوم طِخفَــة غيــرَ شــكٍّ علـــى قـــابوس إذ كُـــره الصـــباحُ

لعمـــرُ أبيـــك والأنبـــاءُ تنمـــي لـــنعم الحـــيُّ فـــي الجُلَّـــى ريـــاحُ

[٣٥] عبد الحميد محمود المعيني ، شعر بني تميم في العصر الجاهلي ص٢٣١-٢٣٢.

أبــوا ديــن الملــوك فهــم لَقَــاح إذا هِيجــوا إلـــى حـــربٍ أشـــاحوا

فمــا قــوم كقــومي حــين يعلــو شـــهاب الحـــربِ تُســـعرهُ الرِّمـــاح

ومــا قــوم كقــومي حــين يُخشــى علـــى الخـــودِ المخـــدّرة الفِضـــاحُ

أذبُّ عــن الحفــائظ فــي معــدٍّ إذا مـــا جـــدَّ بـــالقوم النِّطـــاح

كـــأنهم لِوقـــع البِـــيض بـــزلٌ تغـــضُّ الطـــرف واردةً قِمـــاحُ

صــبرنا نكســر الأســلات فــيهم فرُحنـــا نـــاهرين لهـــم وراحـــو

ورحنـــا تخفـــق الرايـــات فينـــا وأبنـــاء الملـــوك لهـــم أُحـــاح

ويقول زيد بن عمرو[٣٦]:

وكنــت إذا مــا بــاب ملــك قرعتــه قرعــت بآبــاء ذوي شــرفٍ ضــخمِ

بأبنـــاء عتـــاب وكـــان أبـــوهم إلــى الشــرف الأعلــى بآبائــه ينمــي

هــم ملكــوا الأمــلاك آل محــرق وزادوا أبــا قــابوس رغمــا علــى رغــمِ

وقــادوا بكــره مــن شــهاب وحاجــب رؤوس معـــد بالأزمـــة والخطـــمِ

عــلا جــدهم جــد الملــوك فــأطلقوا بطخفــة أبنــاء الملــوك علــى الحكــمِ

وأيهــات مــن أنقــاض قــاع بقفــزةٍ بــدور أنافت فــي السماء علــى النجمِ

حمانــا حمــى الأسد التــي لِشُــبولها تجــرُّ مــن الأقــران لحمــا علــى لحــمِ

وكنـــا إذا قـــوم رمينـــا صـــفاتهم تركنــا صُــدوعا بالصــفاة التــي نرمــي

[٣٦] شعر بني تميم في العصر الجاهلي ص٢٥٤- ٢٥٥.

ونرعى حمى الأقوام غير محرَّمِ علينا ولا يرعى حمانا الذي نحمي

أنا ابن الذي ساد الملوك حياته وساسى الأمور بالمروءة والحِلمِ

وكانت مناسبة القصيدتين حينما أراد المناذرة إلغاء منصب الردافة الذي أعطوه لليربوعيين ؛ لكن اليربوعيون أبوا التنازل عنه ، وحشدوا الجموع ، وهزموا المناذرة بقيادة قابوس بن المنذر وأسروه ، وفخر اليربوعيون بهذا النصر.

افتخر الشاعران بقبيلتهما أيما افتخارًا اندمجت فيه الأنا والنحن ؛ فلا وجود للشاعر خارج قبيلته ، وركز الافتخار على قيمة العراقة والأصالة لآبائهما (أنا ابن الذي ساد الملوك ، إلى الشرف الأعلى بآبائه ينمي)؛ فقبيلة الشاعر هي النموذج الإنساني ذي الدلالات السلطوية ، وبالإضافة إلى بروز سلطة القبيلة بالعراقة فإن صفات أخرى يسردها الشاعران لتكتمل مقومات سلطتها ؛ (صبرنا نكسر الأسلات فيهم، رحنا ناهرين لهم، رحنا تخفق الرايات فينا، فما قوم كقومي حين تعلو شهاب الحرب تسعره الرماح).

فالأبيات تحمل بين طياتها إضمارًا نسقيًا يشي بمعاني تركز في بنيتها على قيمة البطولة للقبيلة ، وقيمة الخلود بالأصالة ، وقيمة المروءة والحلم في سياستها ؛ وفي المقابل تجريد الخصم من صفات الشجاعة والفروسية التي اتصفت بها القبيلة ؛ سبيلا لتهميش سلطة العدو أمام سلطة يربوع ؛ إذ معنى أن يجردا الخصم من صفات البطولة التي وصفا بها قبيلتهما ؛ فهي غائبة في عالم النسق المضاد ؛ ولذا فهو غير مؤهل لقيادة الحرب ؛ غير مؤهل للاتصاف بالسلطة ؛ فالبديل السلطوي قبيلة يربوع ؛ وهي الأولى بحكم الردافة من المناذرة.

فلما جاء الإسلام تضاءلت العصبية القبيلة ، والتي كانت منبع الحروب والتقاتل بين الناس ، وسبب انتشار الحقد والبغض بينهم وكذلك الكِبر والغرور ، وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز آيات كثيرة تدل على نبذ العصبية القبيلة والاحتماء بالدين الإسلامي ، وفي هذا بيان للناس بأنهم جميعهم متساوون ، لا فرق بين عربي ولا أعجمي ؛ بل بالولاء لله والرسول والإسلام ، و" في واقع الأمر، لم يكن القضاء على

النزعة القبيلة في الإسلام نهائيا، بل لم يستطع الاستغناء عن التنظيم القبلي ونظمه الإدارية والحربية، فكان تخطيط الأمصار وتعبئة الجيوش قائمين على هذا الأساس، لذلك ظل النظام القبلي قائما في العصر الإسلامي لكن ضمن نطاق نظام الدولة، وعندما دمج الإسلام بين القبائل وجعل منها أمة إسلامية واحدة تم هذا الاندماج عن طريق القبيلة، فكأن القبائل دخلت الأمة بتظيمها القبلي القديم، فقد ألقي على كاهل القبائل عبء دفع الديات وفديات الأسرى كما كان متبعا في العصر الجاهلي"[٣٧].

وعند استقراء السلطة السياسية في العصر الإسلامي " صدر الإسلام " عند المخضرمين والإسلاميين وجدت مقومات السُّلطة هو صاحب السلطة الأعلى وهو الإسلام وبدلًا ما كانت السُلطة للقبيلة في العصر الجاهلي أصبحت لجماعة المسلمين الكبيرة والرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مقومات سُلطة إضافة إلى الشجاعة والكرم المنتقلين من العصر الجاهلي وأقرهما الإسلام فضائل عظيمة من خصال المؤمن الحق ، وإن كانت بعض مجالات إثبات الشجاعة تغيرت في العصر الإسلامي عنها في العصر الجاهلي وتغيرت أهدافها ؛ فكانت مثلًا الوقائع والمعارك الحربية مجال إثبات الشجاعة في العصر الإسلامي والتي كان يُطلق عليها الأيام في العصر الجاهلي ، وبعد أن كانت في الجاهلية بسبب العصبية القبلية أو لأخذ ثأر..أو غير ذلك مما كانت تقام له الأيام ؛ فقد تغيرت أهدافها في العصر الإسلامي لنصرة الإسلام والمسلمين ، ونشر دعوة الدين ، وحماية للمسلمين ، مع نبذ الإسلام للعنف وإراقة الدماء.

يقول الشاعر المخضرم الزبرقان بن بدر[٣٨]:

نحــنُ الكــرامُ فــلا حــيٌّ يُعادِلنــا منَّــا الملــوكِ وفينــا تنصــبُ البيــعُ

وكــم قســرنا مــن الأحيــاءِ كلِّهــم عنــد النِّهــاب وفضــلُ العــزِّ يُتَّبَــعُ

[٣٧] أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب النسب ، تحقيق مريم محمد ، طبع دار الفكر ، ط١ ، ١٩٨٩ ، ص٧١.

[٣٨] شعر قبيلة تميم في العصر الجاهلي ، ص ١٨٧.

ونحن نطعمُ عند القحط مطْعَمَنَا مـن الشِّـواء إذا لـم يُـؤنس القَـزَعُ

وننصـر النـاس تأتينـا سَـراتُهم مـن كـل أرض هوّيـا ثـم نصـطنِعُ

فننحـرُ الكَـوم عَبْطـاً فـي أورُومتِنـا للنـازلين إذا مـا انزِلُـوا شَـبعُوا

فـلا تـرى النَّـاس مـن حـيّ نُفـاخرهم إلا اسـتقادوا وكـادَ الـرأسُ يُقتطـع

إنّـا أبينـا ولـن يـأبَى لنـا أحـدٌ إنّـا كـذلك عنـد الفخـرِ نرتفِـعُ

فمـن يقادِرُنـا فـي ذاك نعرِفُـهُ فيرجِـعُ القـولُ والأخبـارُ تُسـتَمعُ

تلـك المكـارمُ حُزناهـا مُقارعـةً إذا الكِـرامُ علـى أمْثالِهـا اقترعُـوا

يفخر الشاعر الزبرقان بن بدر بقبيلته ؛ فهي قبيلة عريقة في الشرف والسيادة ؛ حازوا كل المكارم ، المروءة ، الشهامة ، وكل ما يجعل لهم وجودًا وهيمنة في الحياة ؛ فهم السادة والملوك والفرسان الكرام.

والشاعر حين يعدد مكارم قومه يعتمد فاعلية التضاد ؛ يقدم وقوع قومه أمام ظروف قاسية كالقحط والجدب ، أو دعوتهم لنصرة مظلوم ؛ تلك الأجواء التي تبعث في النفس الخوف على الحياة والمال ؛ لكن قومه يجتازون كل الصعاب صانعين عالمًا مضادًا يجودون فيه بالنفس والمال من أجل الآخرين، إن قومه عالم تكتنز فيه كل ملامح الخير.

إن أعظم تجليات الكرم هو الإطعام عند القحط " نحن طعم عند القحط" ؛ وليس مجرد إطعامًا فقط ؛ بل هو إطعام أفخر الأطعمة " الشِّواء" و لحد الشبع ، ويؤكد الشاعر ذلك فعلًا مستمرًا لقبيلته عبر استخدامه الفعل المضارع في كل خصالها : ننصر الناس ، نرتفع ، نطعم ، والذي يدل على استمرار فعل قومه ؛ فقبيلته فعلها دائم وذكرها خالد .

ونجد شجاعة قومه في استجابتهم السريعة لنجدة المستنجدين بهم ، فهم أصحاب السجايا الكريمة ؛ والموت عندهم في سبيل إثبات ذواتهم حياة ، ولذا فلغة النص تكشف عن نسق مضمر يدل على أن الشاعر يروم إبراز سلطة قبيلته ببطولتها المحققة بقوتها النفسية والمعنوية.

ويقول الشاعر المخضرم **أوس بن مغراء**[٣٩] : وهنا نجد الفخر بالدين الإسلامي ، بالله ورسوله هو قوام السلطة.

منّـــا النبـــي الـــذي قـــد عـــاش مؤتمنـــاً وصـــــاحباه وعثمـــــان بـــــن عفانـــــا

يحـــالف النـــاس ممـــا يعلمـــون لنـــا ولا يحـــــــــالف إلا الله مولانـــــــــا

محمـــد خيـــر مـــن يمشـــي علـــى قـــدم وكـــــان صـــــافيةً لِلَّـــــهِ خلصـــــانا

وأما في العصر الإسلامي فهذا الأسود بن قُطبة الشاعرالإسلامي الذي شهد القادسية في عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقول [٤٠]ويفخر ببلاء قومه في يوم اليرموك : ونلاحظ إثبات السلطة لقومه بالنصر في هذه المعركة من أجل العقيدة ، واستمرار الفخر القبلي وسلطة القبيلة في صدر الإسلام ، والحقيقة أنَّ هذه السلطة تخص " جماعة المسلمين الكبيرة ، التي استوعبت كلَّ العلاقات العصبية والقبلية ، القائمة على وشائج القربى والدم والنسب ، فنسختها في إطار وجداني قومي وفكري ، يقوم على أواصر الإنسانية والأخوة والعقيدة والمساواة ، وراح الشعراء يصدرون عنه "[٤١] ؛ إنه من شعر الفتوح الإسلامية التي " وضعت أمام الشعراء مواقف شبيهة بالمواقف التي ألفوها وألفها الشعر في الجاهلية ، وإن اختلف الهدف بين

[٣٩] شعر قبيلة تميم في العصر الجاهلي ، ص١٠٢.

[٤٠] عبد القادر فياض حرفوش ، شعراء تميم في الجاهلية والإسلام ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، نشر دار البشائر ، دمشق ، ج٢ ، ص٩٩.

[٤١] النعمان عبد المتعال القاضي ، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، د.ط ، د.ت ، ص٢٦٨.

المواقف اختلافاً شاسعاً ، إلا أنها قد أزالت حرج الشعراء ، وفتحت أمامهم أبواباً كان طرقها محظوراً في ظلال الفكرة الإسلامية ، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ما داموا جميعاً يذودون عن العقيدة ، ويبذلون الأرواح رخيصة في سبيلها . أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحرافاً عن حدود المهمة التي نيطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبيات التي كان يجب أن تختفي ويعفى على آثارها"[٤٢].

ألـم تعلمـي والعلـمُ شـافٍ وكـافٍ ولـيس الـذي يَهـدي كـآخر لايَهـدي

بأنَّـا علـى اليرمـوك غيـر أشـابةٍ غــداة هِرقــلٍ فـــي كتائبـــه يـــردي

وأن بنـــي عمـــرو مطـــاعين فـــي مطـاعيم فـي الـلأواء أنصـبة الجهـد

وكـم فـيهم مـن سـيدٍ ذي توسُّـعٍ وحمـــال أعبـــاء وذي نائـــل قَهـــدِ[٤٣]

ومن ماجد لا يـدرك النَّاسُ فضلـه إذا عُـدت الأحســابُ كالجبـل الشـدِّ

ويقول أيضًا:

قـد علمـت عمـروٌ وزيـدٌ بأنَّنـا نحــلٌ إذا خــافَ العشــائر بالسَّــهلِ

نجـوب بـلاد الأرض غيـر أذلـةٍ بها عَرضُ ما بين الفرات إلى الرَّملِ

أقمنـا علـى اليرمـوك حتـى تجمَّعت جلابـــب رومٍ فـــي كتائبهـــا العُضـــلِ

نـرى حين نغشـاهم خيـولاً ومعشراً وأســلحة مــا تســتفيق مــن القتــلِ

شـفاني الـذي لاقـى هِرقـلُ فـردَّه علــى رغمــه بــين الكتائــبِ والرَّجــلِ

[٤٢] المرجع السابق ، ص١٧٥ -١٧٦.

[٤٣] القهد : النقيُّ اللون ، وخص بعضهم به البيض من أولاد الظباء والبقر.

قتلنـــاهم حتـــى شـــفينا نفوســـنا من القادة الأولى الرؤوس ومن حملِ

نعـــاورهم قـــتلاً بكـــل مُهنَّـــدٍ ونطلـبهم الـذَّحل ذحـلاً علـى ذحـلِ[٤٤]

يمدح الشاعر قبيلته التي أبلت بلاءً حسنًا في موقعة اليرموك التي فيها هزم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد الروم هزيمة ساحقة ، وانسحب زعيمهم هرقل من بلاد الشام.

وفي مدح الشاعر لقبيلته مضمر نسقي يشي بسلطة قبيلته والمسلمين من صور الشجاعة والإقدام والبطولة التي تحلوا بها في مواجهة العدو ، بينما تحمل عبارات مثل " غداة هرقل في كتائبه يردي" هذه الصورة التي توحي بالهلاك للأعداء ، الطرف الثاني في المعركة ، الخصم المغلوب ؛ إنه وصف لهم بالعدم أمام سلطة قبيلة الشاعر وسلطة المسلمين.

فالشاعر يفخر بقيبلته فخرًا يبعث في نفسه القوة والوجود ؛ فعندما يقول " شفاني ، قتلناهم حتى شفينا أنفسنا " فكأنهم انتصروا على العدم والمرض في صورة الحرب والأعداء ؛ نعم إن وجود العدو معناه أن تكون غير موجودًا ؛ لقد قهروا الأعداء ، لقد قهروا العدم ، وألحقوه بالخصوم.

لقد تحقق النصر المشروط بالشجاعة والفروسية اللتين كانتا طريقا نيل الحرية ، وحقَّ لهم ؛ إنهم هم المنصورون بفعلهم وصفاتهم " مطاعين في الوغى " " نحلٌ إذا خاف العشائر بالسهل " وكم فيهم من " حمَّال أعباءٍ" ؛ إنها لأفعال وصفات السادة الأحرار .

لقد كانوا مصرين على وجودهم وسلطتهم ؛ ويؤكد ذلك استخدام الشاعر للفعل المضارع الذي يوحي بإصرارهم واستمرار نشاطهم في الحرب حتى انتصروا " نعاورهم قتلاً بكلِّ مهند ، ونطلبهم بالذحل ذحلاً على ذحل ، نرى حين نغشاهم خيولاً ومعشراً وأسلحة ما تستفيق من القتل" في عبارات وصور تبرز مدى قوة فعلهم في الأعداء والتي من ورائها يتحقق وجودهم وسلطتهم .

---

[٤٤] الذحل : الثأر أو هو العداوة.

سَـــما عُمـــرٌ لمَّـــا أتتـــه رســـائلٌ كأصـــيدَ يحمـــي صَـــرمة الحـــيّ أغيَـــدا
وقـــد عضَّـــلت بالشَّـــأمِ أرضٌ بأهلهـــا تُريـــد مـــن القـــومِ مـــن كـــان أنجـــدا
فلمَّـــا أتـــاه مـــا أتـــاه أجـــابهم بجـــيشٍ تـــرى منـــه الشَّـــبائك سُـــجَّدا
وأقبلـــتِ الشـــأم العريضـــةُ بالـــذي أراد أبـــو حفـــصٍ وأزكـــى وأزيـــدا
فقسَّـــط فيمـــا بيـــنهم كُـــلَّ جزيـــةٍ وكـــلَّ رِفـــادٍ كـــان أهنـــا وأحمـــدا

كما كان هناك بعصر صدر الإسلام السلطة الفردية للخلفاء وقادة المسلمين ، يقول **زياد بن حنظلة التميمي**[٤٥] : يمدح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

تجود الأبيات بنسق السلطة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لقد تضافرت الدلالات في رسم الشاعر لصورة قائد فارس عادل قوي شجاع لم يوفر جهدًا في نهضته عندما أتته رسائل من الشام بطلب العون منه ، وذلك في معركة أجنادين ، في الفتح الإسلامي للشام بقيادة عمرو بن العاص ، فأسرع كصائدٍ قوي يحمي قومه من كل شر، ومن كل ضيق وشدة ، إنه الرجل الشجاع المُنجد ، ذو الجيش القوي والأسلحة الفتاكة ، فأرسل الأمداد لهم.

وقد تحقق النصر للمسلمين على الروم بل أكثر من ذلك زادوا عزة ومنعة ، وقام عمر بتوزيع الجزية عدلًا ؛ فالنص يلح في صوره على إبراز مدى حنكة عمر في السياسة ، والقوة في الإدارة ، الشجاعة والقوة اللتين يتميز بهما عمر في حربه ، وتغدو الحرب والاستبسال فيها رمزًا من رموز إثبات السلطة في حياة كل إنسان يحارب من أجل الوجود.

وفي العصر الأموي: عادت سلطة القبيلة بسبب ظهور الأحزاب والفرق ؛ نتيجة " الأحزاب السياسية التي نتجت بفعل الصراع على الخلافة بين بني هاشم وبني أمية حيث استتبع ذلك انقسامات قبلية موازية لكل حزب، وكان يكفي أن يكون سيد القبيلة مع معاوية مثلا لتصبح كلها أموية الهوى، أو يكفي أن يكون مع علي فتصبح عشيرته

[٤٥] عبد القادر فياض ، شعراء قبيلة تميم في الجاهلية والإسلام ، ج٢ ، ص٣٩٨.

كلها علوية المنزع"[٤٦] ، وكان كل حزب يرى نفسه وقبيلته هم الأفضل والأكثر ملائمة للحكم من الآخرين ، وظهر الشعراء الموالون لحزب دون الآخر المدافعون عنه ، الناصرون له ، الداعون إليه ؛ فلقد " قام الشعراء والنسابون من كل قبيلة يدافعون عن قبائلهم يتعصبون لها ويفخرون بمآثرها، وكل فريق يعمل على الفخر بأيامه ووقائعه ونسبه ويحاول الانتقاص من الفريق الآخر سواء بمواقعه في الجاهلية أو أصله ونسبه. وخير ما يمثل هذا التيار شعر النقائض الذي اشتهر انذاك، وخاصة في قصائد جرير والفرزدق"[٤٧] ، وأيضًا انتشر المدح الفردي وظهرت السلطة الفردية ، سلطة الحاكم والأمير ، وبعدما كان الفخر بجماعة المسلمين والإسلام عاد قبليًا يهدف إلى سلطة القبيلة التي قوامها الكرم والشجاعة ، مع سلطة الحاكم لنيل العطايا ؛ والذي سبب ذلك هو ظهور سلطة الحكام إضافة للسلطة القبيلة ، وسلطة الدولة الأموية ، ومن مدح حكام الدولة الأموية ، يقول مسكين الدارمي[٤٨]: وكانت لتأييد خلافة يزيد بن معاوية ؛ وقد أجزلا صلته وعطاءه.

إليــكَ أميــرَ المــؤمنين رَحَلتُهــا تُثيـــرُ القَطـــا وهـــنَّ هجـــودُ

لـدى كـل قرمـوص[٤٩] كـأن فراخـه كُلـــيً غيــر أن كانــت لهــن جلــودُ

وهـــاجرة ظلـــت كـــأن ظباءهـــا إذا مـــا اتقتهـــا بـــالقرون ســـجودُ

تلـوذ لشـؤبوب مـن الشـمس فوقهـا كمــا لاذ مــن حــر الســنان طريــدُ

[٤٦] أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب النسب ، ص٧٨.

[٤٧] أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب النسب ، ص٧٩_٨٠.

[٤٨] مسكين الدارمي ، الديوان ، جمع عبد الله الجبوري ، خليل إبراهيم ، دار البصري ، بغداد ، ط١ ، ص٣٢-٣٤.

[٤٩] القرموص : وكر الطائر ، وأيضاً حفرة الصائد .

ألا ليت شعري ما يقول ابنُ ومروان، أم ماذا يقول سعيدُ[٥١]

بني خلفاء الله مهلا فإنما يبوءها الرحمن حيث يريدُ

إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيدُ

على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أناس طائر وجدودُ

فلازلت أعلى الناس كعباً ولا تزل وفود تساميها إليك وفودُ

ولا زال بيت الملك فوقك عالياً تشيد أطناب له وعمودُ

قدور ابن حربٍ[٥٢] كالجوابي تحتها أثافٍ كأمثال الرئال ركودُ

يصف الشاعر في لغة قوية جزلة رحلته الصعبة في الذهاب إلى ممدوحه يزيد بن معاوية ، مصورًا قسوة الصحراء ووعورة الطريق وليس هذا إلا للوصول لممدوحه الأحق بالخلافة من غيره ، هو الكريم الذي يستمر دائمًا في العطاء وإطعام الناس ؛ فقد سافر ليلًا فأثار القطا النائم خطواته وسرعته ، وقد مرَّ بطائر القرموص وأولاده الصغار كالكلى ، يصور أجزاء الصحراء ومكوناتها تصويرًا دقيقًا يظهر قساوة الطريق ، وقد طلعت عليه الشمس فجعلت حرارتها الظباء تنحني بقرونها اتجاه الأرض كأنها ساجدة ، تهرب من الشمس كالهارب من رمح مسنون عليه . ووصف رحلة الصحراء الصعبة على الشاعر ليضاعف عطاءه من الممدوح.

ثم يمدح الشاعر يزيدًا مبينًا عن سلطة وأحقية يزيد بالخلافة إذا خلا الحكم من حاكم واصفًا خلفاء بني أمية ببني خلفاء الله ، كما أنَّ "يزيد ابن حرب " ، فأي قوة هذه الذي يصفه بها من الانتساب لله عزَّ وجلَّ ليكون بذلك قد حشد له النصال التي

---

[٥٠] ابن عامر : عبد الله ن كريز الأموي ، أمير فتح كثيراً من بلاد ما وراء النهر.

[٥١] سعيد هو سعيد بن العاص من الأمراء الفاتحين.

[٥٢] ابن حرب : معاوية ابن أبي سفيان ، الجوابي : الحوض الذي يجمع فيه الماء للإبل ، أثاف : ما يوضع عليه القدر ، الرئال : أولاد النعامة.

تؤمن سلطته في معركة البقاء السلطوي السياسي ، ويدعو له ببقاء قصر الملك شامخًا فوقه وثباته واستقراره ، تُشد له الأطناب وترفع له الأعمدة.

إن الشاعر يمدحه بصور تبرز مدى ما يتمتع به من صفات الملك الذي يتطلب قوة وشجاعة وكرمًا ونسبًا تأتي من ورائهم السلطة : فلا زلت أعلى الناس كعبًا.. ولا تزال وفود تساميها إليك وفود ، ولا زال بيت الملك فوقك عاليًا.. تُشيّد أطناب له وعمود قدور، ابن حربٍ كالجوابي.. وتحتها أثاف كأمثال الرئال ركود. وهذا هو هدف الشاعر من إثبات السلطة ليزيد فهو من بني أمية فالملك متأصل فيهم وهم خلفاء الله ، هذا الجسر القوي الذي جعله لهم أساسًا في نيل سلطتهم إضافة إلى فعل الممدمح الذاتي الإبداعي وهو " ابن حربٍ" الذي يقتضي بالضرورة الشجاعة والقوة لتحقيق الوجود.

يقول العجاج[٥٣] : يمدح بني مراون بن الحكم من بني أمية

زلَّ بنـــــو العـــــوَّام عـــــن آل الحَكـــــمْ

وَشـــــنئوا المُلـــــكَ لِملـــــكٍ ذي قِـــــدمْ

ضَـــــخمِ الإيـــــادين، شَـــــديدُ المُـــــدَّعَمْ

إذا التقـــــت أركانـــــهُ بِمُـــــزدَحمْ

سَـــــرَّح عنـــــه وهـــــو وحـــــفُ المُنـــــثَلمْ

كـــــالعلمِ الأســـــودِ فـــــي جَنـــــبِ العلـــــمْ

دَمـــــخٍ ، ومِثـــــلِ إضـــــمٍ إلـــــى إضـــــمْ

أو كَعُبـــــــــــابَي ذي أَواذيَّ غِطَـــــــــــمْ

ذي واسِـــــــــقاتٍ تترامـــــــــى بـــــــــاللُّخمْ

[٥٣] العجاج ، الديوان ، تحقيق عزة حسين ، دار الشرق العربي ، بيروت ، ط١٩٩٥ ، ص١٤٩ -١٥١.

يتـــــرُكنَ أفـــــلاقَ العَـــــدو لـــــيِّ العُظُـــــمْ

بالســـــــاحلَين مثـــــــل أفـــــــلاقِ البُـــــــرمْ

إذ هَيَّجَتـــــــه يـــــــومُ غَـــــــيمٍ فـــــــاطرَخمْ

إنَّ بنـــــــي مـــــــروان ضـــــــرأَبو الـــــــبُهمْ

والقـــــــاتلون مـــــــن عَصـــــــى ، أو اعـــــــتَقمْ

دينـــــاً سِـــــوى الحَـــــقِّ إلـــــى أمـــــر أمَـــــمْ

كُلُّهـــــم ينمـــــي إلـــــى عـــــزٍّ أشـــــمْ

أَطـــــولَ مـــــن فَرعـــــي حِـــــراءٍ أو خِـــــيمْ

الحياة صراع ، البقاء فيه للأقوى ، لذا فالشاعر يثبت لبني مروان بن الحكم كل صفات وأسباب القوة والبقاء والسلطة ، ففي الأبيات نجد بعدًا سلطويًا لممدوح الشاعر يتمثل بأفكار الوجود عبر فاعلية الشجاعة في الحروب والقضاء على الأعداء.

إن القصيدة تمجد بني مروان ، تبين عن قوتهم الحربية ، أصالة نسبهم ، ووحدتهم وسيطرتهم السياسية ، وهيبتهم الحربية التي تجعلهم إن اجتمعوا في معركة في يوم عاصف شديد يتفوقوا فيها ، يُسرِّحون الأعداء جرحى مهزومين ، كأنهم الأواني المكسورة.

تمعن فنية النص في توضيح صور القوة والغلبة لبني مروان كمحاولة لإثبات إقدام بني مروان وبأسهم ، فنرى صور القوة تنبعث من كل جزء في القصيدة : ضخم الأيادين شديد المُدَّعم ... إذا التقت أركانه بمُزدحم ... سرَّح عنه وهو وحفُ المُنثلم .. كالعلم الأسود في جنب العلم فالجيش كالعلم الأسود الواضح القوي ذو هيبة عالية ، دَمخٍ ومثل إضم إلى إضم ، أو كعُبابي ذي أواذيَّ غِطم فهم كالموج العظيم وكمجاري

السيول ، ذي واسقات تترامى باللُخُم .. يتركن أفلاق العدو ليِّ العُظم .. بالساحلين مثل أفلاق البرم ، إن بني مروان ضرّابو البُهم والشاعر مستخم لصيغة المبالغة من الفعل ضرب ضرَّاب لأنهم قد اعتادوا ضرب الأعداء وقتلهم ، ولنا أن نتخيل إذا كان جيش وصفه هكذا ما فاعل هو بالأعداء ؛ فالأعداء إلى عدم محقق بفعل بني مروان ، وتُصبح كل من القوة والشجاعة والحماسة في الحرب جسر عبور بني مروان للسلطة والسيطرة .

ويقدِّم الشاعر الهدف الشريف الذي من أجله يقاتل بنو مروان وهو "دين الحق" فهم القاتلون من عصى أو اعتقم دينا سوى الحق حتى يدينون دين الحق ويتمثلون شريعة الإسلام.

ومن سلطة الحكام الفردية النفعية يمدح **حاجب بن زبيان المازني** يزيد بن المهلب [٥٤]: فأمر له بدرع وسيف ورمح وفرس.

إليك امتطيتُ العيس تسعين ليلة أرَّجي ندى كفَّيك يابن المُهلَّبِ

وأنت امرؤ جادت سماء يمينه على كلِّ حيٍّ بين شرق ومغربِ

فجُد لي بطرفٍ أعوجيٍّ مُشهَّرٍ سليم الشَّظا عَبل القوائمِ سَلهَبِ

سبوحٍ طموحِ الطَّرف يَستنُّ مِرجم أُمِرَّ كإمرار الرَّشاءِ المُشذَّبِ

طوى الضُّمر منه البِطنَ حتَّى عُقابٌ تدلَّت من شماريخ كَبكبِ

تُبادر جنح الليل فرخين أقويا من الزَّاد في قفر من الأرض مُجدبِ

فلمَّا رأت صيداً تدلَّت كأنَّها دلاةٌ تهاوى مرقباً بعد مرقبِ

فَشكَّت سواد القلب من ذئب قَفرةٍ طويل القرى عاري العِظامِ معصَّبِ

[٥٤] عبد القادر فياض ، شعراء تميم في الجاهلية والإسلام ، ج٢ ص ٢١٤-٢١٥ . وينظر ج٣ ص٨٨٢ المغيرة بن حبناء يمدح قتيبة بن مسلم ، وص ٨٨٥ يمدح المهلَّب.

وسـابغةٍ قـد أتقـن القـين صـنعها وأســـمر خطِّـــيٍ طويـــل مُحـــرَّبِ

وأبـيض مـن مـاء الحديـد كأنَّـه شِـهابٌ متـى يلـق الضـريبة يقضـبِ

وقـل لـي إذا ماشـئت فـي حومـة تقـدَّم أو راكـب حومـة المـوت أركـبِ

فـإنّي امـروٌ مـن عُصـبةٍ مازنيـةٍ نمـــاني اب ضـــخم كـــريمُ المركَّـــبِ

كانت المثل الأخلاقية العالية وسائل مهمة لإبراز سلطة الممدوح ؛ ويأتي الكرم في مقدمة هذه المثل ؛ فهو الوسيلة الأمثل التي يفخر بها كل عربي ، ويُمتدح بها كل ممدوح ؛ الوسيلة التي تزيد الإنسان عمراً على عمره ؛ فيبقى مُخلد الذكر بعد موته ؛ ولذا يمدح الشاعر في ممدوحه يزيد بن المهلب كرمه ، ويثبت له كرم السماء بحالها.

إن كرم يزيد كل كرم السماء ، هو السحاب الماطر الذي يجود بكرمه على كل حي في المشرق والمغرب ؛ لنلاحظ اتساع كرمه على الناس جميعا " ندى كفيك " " سماء يمينك " ففضله واسع وكرمه عام لكل الخلائق فليسعه كرمه ، وأخذ يوصف ما يريده من ممدوحه : الفرس العربي الأصيل ، السريع ، خفيف وقع رجله على الأرض ، كأنه عقاب يطير بصغاره مسرعًا بحثًا عن الرزق في أرض قفرة ، ولما رأى الصيد انقضَّ من مكان لمكان بسرعة لكنه رأى الذئب فخاف منه وهو الهزيل المنتظر لأي ضيف ، وكل وصفه كناية عن الفرس الأصيل المعروف بالحروب ، ثم ينتقل لطلبه الثاني وهو الدرع متقنة الصنع ، والرمح الخطي ، والسيف اللامع القاطع المُعد للمعارك وفي هذه التفاصيل التي أوردها لمطلبه ما يوحي باهتمام ممدوحه أن يعطي العطاء في أبهى صورة وعلى أكمل وجه ؛ وليصنع لك أيها القاريء أو يقدم ممدوحًا كريمًا وفي نفس الوقت شجاعًا عليمًا بكل أدوات الحرب وصفاتها وأجودها.

في صورة بدأها بكرم ممدوحه وأنهاها بفخره بذاته وباستعداده للقتال وولائه لممدوحه ؛ كأنه يثبت له أنه يستحق كرمه وعطاءه لأنه من أصل يافع من قبيلة مازن ، وأب كريم معروف بعظم شأنه ؛ لتكشف دلالات الأبيات عن نسق مضمر هو سعي الشاعر لإثبات سلطة ممدوحه.

والحقيقة أن هذه السلطة النفعية قد بدأت من العصر الجاهلي فلقد تحول المدح للتكسب مع مدح ملوك الغساسنة والمناذرة ، وهو الحاكم غير العشائري كما يقول عبد الله الغذَّامي أي ليس حاكم قبيلة ، وإنما حاكم في الممالك التي ظهرت في الشمال مع الغساسنة والمناذرة التي اتخذت نموذج الحاكم الإمبراطور، كانت ممالك الوسط والجنوب محافظة على النمط القبلي في مفهوم الزعيم القبلي الذي هو من العشيرة وعلى غرارها النموذجي في علاقاته مع أفراد مملكته ، الذين هم ليسوا رعايا بقدر ماهم جماعته وناسه ، ومع ظهور هذه الممالك حدث تحول في القيم ؛ حيث تحولت القيم من بعدها الإنساني إلى بعد ذاتي نفعي أناني ، تحولت من قيم قبلية ذات بعد وجودي إلى قيم شعرية متحولة جرى تزييفها لمصلحة السوق الثقافية ، وظهر تقليد ثقافي تخلق فيه شخص الممدوح وشخص المداح ، وبينهما صفقة متبادلة فهذا يمدح وهذا يمنح ، وكان هذا عنصراً دخيلاً بسبب التأثر العربي بالطقس الإمبراطوري الروماني والفارسي ؛ حيث شخصية الملك المطلق بصفاته المتعالية ومنزلته المتفردة كما صنعه الشاعر المدَّاح ، وهو التحول الثقافي له آثاره العميقة في ثقافتنا خاصه بحوثه أواخر العصر الجاهلي مما جعله هو النموذج المحتذى حينما صارت العودة إلى القيم الثقافية الجاهلية مع مطلع العصر الأموي والذي أدَّى إلى غرسه في الذاكرة الثقافية للأمة[٥٥].

ويؤكد تحول الشعر القيمي إلى شعر مدحي غرضه نفعي ما قاله علقمة الفحل يمدح به الحارث بن شمر الغساني ؛ كيف يمدحه وقد أسر أخاه ؛ يمدحه من أجل **مكسب وهو فك أسر أخيه ، يقول علقمة الفحل**[٥٦]:

لتبلغِنـــي دار امـــرىءٍ كـــان نائيـــاً فقـــد قربَّتنـــي مـــن نـــداك قَـــروبُ

إليـــك –أبيـــتَ اللَّعـــنَ – كـــان وجيفهُـــا بِمُشـــتبهاتٍ هـــو لهـــنَّ مَهيـــبُ

تتبَّـــعُ أفيـــاءَ الظِّـــلال عشـــيَّةً علـــى طـــرقٍ كـــأنَّهنَّ سُـــبوبُ

---

[٥٥] انظر عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي من ١٤٣ – ١٤٦.

[٥٦] ديوان علقمة الفحل ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق لطفي الصقال ، دريَّة الخطيب ، دار الكتاب العربي ، حلب ، ط١، ١٩٦٩، ص٣٩-٤٨.

هـــداني إليـــك الفرقـــدانِ ولاحـــبُ ... لـــه فـــوق أصـــواءِ المِتـــانِ عُلـــوبُ

بهـــا جِيـــف الحســـرى فأمَّـــا عِظامُهـــا ... فبـــيضُ وأمَّـــا جِلـــدُها فصـــليبُ

فأوردتُهـــا مـــاءً كـــأنَّ جِمامـــهُ ... مـــن الأجْـــنِ حنَّـــاءُ معـــاً وصـــبيبُ

تـــراد علـــى دِمْـــن الحيـــاض فـــانْ تعـــف ... فـــأنَّ المُنـــدَّى رِحْلـــةٌ فزُكـــوبُ

وأنـــت امـــرؤٌ أفْضَـــت إليـــك أمـــانتي ... وقبلـــك ربَّتنـــي ، فضـــعِتُ رُبـــوبُ

فـــأدَّت بنـــو عـــوف بـــن كعـــبٍ ربيبهـــا ... وغُـــودر فـــي بعـــض الجُنـــودِ ربيـــبُ

فـــو الله لـــولا فـــارس الجَـــونِ مـــنهمُ ... لآبـــوا خزايـــا والايـــابُ حبيـــبُ

تُقدّمُـــه حتـــى تغيـــب حُجُولُـــه ... وأنـــت لبـــيض الـــدَّارعين ضـــروب

مُظـــاهرُ سِـــربالي حديـــد عليهمـــا ... عقـــيلا ســـيوفٍ مخـــذَمٌ ورَســـوبُ

فجالـــدَتهُم حتـــى اتَّقـــوك بكبشـــهم ... وقـــد حـــان مـــن شـــمس النَّهـــار غُـــروبُ

وقاتـــل مـــن غســـان أهـــلُ حِفاظِهـــا ... وهنِـــبٌ وقـــاسٌ جالـــدت وشَـــبيبُ

تَخشـــخش أبـــدان الحديـــد علـــيهم ... كمـــا خشخشـــت يـــبس الحصـــاد جنـــوبُ

تجـــود بـــنفسٍ ، لا يُجـــادُ بمثلهـــا ... وأنـــتَ بهـــا ، يـــوم اللّقـــاءِ ، تطيـــبُ

كـــأن رجـــال الأوس تحـــت لَبانِـــه ... ومـــا جمعـــتْ جَـــلُّ ، معـــاً ، وعتيـــب

رغـــا فـــوقهم ســـقبُ السَّـــماءِ فـــداحص ... بشـــكَّتِهِ لـــم يُســـتلبْ وســـليبُ

كـــأنَّهم صـــابَتْ علـــيهم ســـحابةٌ ... صـــواعقُها لِطيـــرهنَّ دبيـــبُ

فلـــم نـــتجُ إلا شَـــطبةٌ بِلجامِهـــا وإلا طِمـــــر ، كالقنـــــاة نَجيـــبُ

وإلا كمـــــيّ ذو حفـــــاظٍ ، كأنَّـــــهُ –بمـا ابتـلَّ مـن حـد الظُّبـات–خصـيبُ

وفـــي كـــل حـــيٍ قـــد خبطـــت بنعمـــةٍ فحُـــقَّ لشـــأسٍ مـــن نـــداك ذَنـــوبُ

ومـــا مثلُـــهُ فـــي النَّـــاس إلا قبيلُـــهُ مســـــاوٍ ، ولا دانٍ لـــــذاك قريـــــبُ

فـــلا تحرِمنِّـــي نـــائلاً عـــن جنابـــةٍ فـــإنِّي امـــرُؤٌ وســـطَ القبـــاب غريـــب

يمدح الشاعر الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني ؛ كي يفك أسر أخاه شأسًا والذي أسره يوم حليمة ، وقد أسس الشاعر مدحه على الفضائل التى كان يحرص كل عربي في العصر الجاهلي على التحلي بها ، والمقدسات من شجاعة وكرامة وكرم ونجدة ....إلخ ، تلك العادات والتقاليد التي كانت بمثابة الدستور التي يجب أن يتعامل به جميع أفراد المجتمع الجاهلي.

يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة ، وقدرته على هزم خصمه ، فمنهم من تولى هاربا من المعركة ومنهم من أُسر، ورجوع قومه أهل غسان منصورين رافعين رؤوسهم ؛ فالشاعروقومه قوة جبارة في وجه الأعداء تلتهمهم وتجعل الموت راحتهم مما يلاقوه، وأفضل من الهزيمة.

تلح صور النص على تأكيد ذات الحارث ونسق سلطته ؛ إذ يرسم النص لوحة متكاملة من أركان مقوماتها صور الشجاعة ؛ إذ تشي صور مثل " فجالدتهم حتى اتقوك بكبشهم ... وقد حان من شمس النهار غروب " ؛ وقوله " كأنهم صابت عليهم سحابة ... صواعقها لطيرهن دبيب" فقد حاربهم من الشروق حتى الغروب ، وجعل الجنود يتركون رئيسهم ويفرون ، وكأن ما أصاب الأعداء صاعقة ماتركت شيئًا حتى الطير"، ومن الصور أيضًا" رغا فوقهم سقب السماء ... فداحص بشكته لم يستلب وسليب" ؛ فقد أسبغ عليه هالة مقدسة بتشبيه مافعله في قومه بما حدث لقوم سيدنا صالح عليه السلام قوم ثمود لما عقروا الناقة ؛ وبذلك ألح الشاعر على إعلاء

ممدوحه وتهميش الآخرين / الأعداء والملوك الذين لجأ إليهم قبله " وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي ... وقبك ربَّتتي، فضعت ربوب"؛ إنها صور ترسم سلطة ممدوحه وهامشية أعدائه.

قدم الشاعر نموذجًا سلطويًا له باع في القوة والعظمة ؛ لذا لايساويه أحد في الفضل والمجد والشرف " وما مثله في الناس إلا قبيله... مساو ، ولا دان لذاك قريب" ، وبذلك أسس الشاعر لسلطة الممدوح التي توجب عليه أن يكون عاليًا مترفعًا عن سفاسف الأمور ، رحيمًا على من تحته ؛ فهو الذي "" وفي كل حي قد خبط بنعمة... فحق لشأسٍ من نداك ذنوب"؛ فأطلق سراح الأسرى.

النتائج

١- كانت سلطة قبيلة تميم ؛ ذلك أنها كانت من كبريات وأشهر القبائل العربية في الجاهلية والإسلام ، وأهمها في تاريخنا العربي القديم.

٢- لم تكن تظهر السُّلطة في الأبيات بشكل مباشر؛ لكن كان كل شاعر يمدح القبيلة بالكرم والشجاعة والمروءة والحلم والنسب وكل عادات المجتمع الجاهلي في السلم والحرب ، كل هذه القيم تُعد مقومات السُّلطة في المجتمع الجاهلي ؛ ولذا فالأبيات تحمل بين طياتها إضمارًا نسقيًا يشي بمعاني تركز في بنيتها على قيمة السلطة للقبيلة.

٣- عند استقراء السُّلطة السياسية في العصر الإسلامي " صدر الإسلام " عند المخضرمين والإسلاميين تضاءلت العصبية القبلية ، ووجدت مقومات السُّلطة هو صاحب السلطة الأعلى وهو الإسلام وبدلًا ما كانت السُلطة للقبيلة في العصر الجاهلي أصبحت لجماعة المسلمين الكبيرة والرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مقومات سُلطة إضافة إلى الشجاعة والكرم المنتقلين من العصر الجاهلي وأقرهما الإسلام فضائل عظيمة من خصال المؤمن الحق ، وإن كانت بعض مجالات إثبات الشجاعة تغيرت في العصر الإسلامي عنها في العصر الجاهلي وتغيرت أهدافها ؛ فكانت مثلًا الوقائع والمعارك الحربية مجال إثبات الشجاعة في العصر الإسلامي والتي كان يُطلق عليها الأيام في العصر الجاهلي ، وبعد أن كانت في الجاهلية

بسبب العصبية القبلية أو لأخذ ثأر..أو غير ذلك مما كانت تقام له الأيام ؛ فقد تغيرت أهدافها في العصر الإسلامي لنصرة الإسلام والمسلمين ، ونشر دعوة الدين ، وحماية للمسلمين ، مع نبذ الإسلام للعنف وإراقة الدماء.

٤- **وفي العصر الأموي** عادت سلطة القبيلة بسبب ظهور الأحزاب والفرق ؛ نتيجة الأحزاب السياسية التي نتجت بفعل الصراع على الخلافة بين بني هاشم وبني أمية حيث استتبع ذلك انقسامات قبلية موازية لكل حزب ، ولكل حزب شعراؤه الذين يمدحونه ويثبتون له السُّلطة دون غيره.

٥- بعدما كان الفخر في العصر الإسلامي بجماعة المسلمين والإسلام والسُّلطة لهما ، في العصر الأموي عاد قبليًا يهدف إلى سلطة القبيلة التي قوامها الكرم والشجاعة ، مع سلطة الحاكم لنيل العطايا ؛ والذي سبب ذلك هو ظهور سلطة الحكام إضافة للسلطة القبيلة ، وسلطة الدولة الأموية.

٦- السلطة النفعية التي انتشرت في العصر الأموي قد بدأت من العصر الجاهلي ؛ فلقد تحول المدح وإثبات السُّلطة للتكسب مع مدح ملوك الغساسنة والمناذرة.

المصادر

– عبد الحميد محمود المعيني ، ديوان شعر قبيلة بني تميم في العصر الجاهلي ، نشر نادي القصيم الأدبي ، ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م.

– عبد القادر فياض ، شعراء تميم في الجاهلية والإسلام ، ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، نشر دار البشائر ، دمشق ، ج٣ ، ج٢.

– العجاج ، ديوان العجاج ، تحقيق د. عزة حسين ، نشر دار الشرق العربي ، ١٩٩٥.

– علقمة الفحل ، الديوان ، جمع وشرح السيد أحمد صقر، نشر مطبعة المحمودية بالقاهرة ، ط١، ١٩٣٥م. مسكين الدارمي ، الديوان ، جمع وتحقيق عبد الله الجبوري ، وخليل إبراهيم العطية ، مطبعة دار البصري ، بغداد ، ط١، ١٩٧٠م.

– نوري حمودي القيسي ، شعر نافع بن الأسود ضمن كتاب شعراء إسلاميون ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م.

المراجع

– أحمد سويلم ، الشعراء والسلطة ، دار الشروق ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٣.

– ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق د/ عبد السلام هارون، طبع دار المعارف، مصر، ١٩٩٢.

– ابن رشيق القيرواني، العمدة، طبعة القاهرة ،١٩٣٤.

– أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب النسب ، تحقيق مريم محمد ، طبع دار الفكر، ط١، ١٩٨٩.

– بيل أشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية ، ترجمة أحمد الروبي وآخرون ، نشر المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠.

– جميل حمداوي ، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان ، مقال بموقع ديوان العرب ، ٧ يناير ٢٠١٢ ،www.diwanalarab.com

– جون برانيغان، السلطة وتمثيلها: قراءة تاريخية في قصة" أثلجت" لريتشارد جيفري، ترجمة: يوسف عليمات، نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، عدد٢٨، نوفمبر٢٠٠٧.

– خلوات حليمة ، مفهوم السلطة السياسية في المجتمعات القديمة والحديثة " دراسة تحليلية" ، بمجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية ، مجلد ٨ ، العدد ١، ٢٠١٧.

- الزواوي بغورة ، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٠.
- صالح طه ، أدب حكام العرب في العصر الجاهلي ، رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ، كلية الآداب ، ٢٠٠٤.
- صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، نشر دار العلم للملايين، ط٣، ٢٠٠٩.
- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط٢.
- عبد الجبار العبيدي ، قبيلة تميم العربية بين الجاهلية والإسلام ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السابعة ، ١٩٨٦.
- عبد الرازق المصباحي ، النقد الثقافي قراءة في المرجعيات النظرية المؤسسة ، المركز العربي للأبحاث ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٢٢.
- عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥.
- عبد الله محمد الغذامي ، عبد النبي أصطيف ، نقد ثقافي أم نقد أدبي ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٤.
- محمود خليف خضير ، السلطة والهامش ، إستراتيجية النقد الثقافي في مقاربة المتخيل الأدبي ، دار الحامد للنشر والتوزيع .
- ملحة السحيمي ، نظرية النقد الثقافي ما لها وما عليها ، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة طيبة، المدينة المنورة.
- ميشيل فوكو ، جنيالوجيا المعرفة ، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط٢ ، ٢٠٠٨.
- نزار جبريل السعودي ، تفاعل النقد الثقافي مع المناهج النقدية والمعارف المتعددة ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ١٤، عدد٢، ٢٠١٧.
- النعمان عبد المتعال القاضي ، شعر الفتوح الإسلامية ، د.ط ، د.ت .
- نورمان فيركلف ، اللغة والسلطة ، ترجمة د . محمد عناني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٦.

- يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٦.
- يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، دارغريب ، القاهرة.
- يوسف عليمات ، جماليات التحليل الثقافي في الشعر الجاهلي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ط١.
- "يوسف عليمات ، النقد النسقي: تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي ، نشر الدار الأهلية، الأردن، عمان، ط١، ٢٠١٥.

Abstract

The research aims to shed light on the pattern of political authority (or political power structure) in the poetry of the Tamim tribe during the Pre-Islamic and Islamic eras, utilizing Cultural Criticism. This approach investigates the text's latent content hidden behind its aesthetic language, and it is one of the most important critical movements accompanying postmodernism. The study of authority is one of its central tenets, through which it reveals areas of hegemony in texts and exposes the repugnant aspects that aim to nullify recipients, standardize their thought, and subject them to the dominance of the oppressor. The research concluded that the tribe was the center of political authority in the Pre-Islamic era. In the Islamic era, tribal authority waned, and the hegemony shifted to Islam, the Prophet (PBUH), and his companions (may God be pleased with them). During the Umayyad era, tribal authority reappeared due to the emergence of political parties, and the individual authority of rulers also became widespread.

Keywords: Pre-Islamic and Islamic poetry of the Tamim tribe, Cultural Criticism, Pattern of Political Authority.